روح القصة في الادب الحديث

لحسن محمود

كنت في احدى الليالي جالساً في مقهى مع جماعة من الادباء وتناثر الحديث فاصطفى كل واحد منا واحداً من الجماعة يتحدث اليه في صوت رفيق ومال اليّ احد افراد الجماعة يسألني ما هي الكتب التي قرأتها في السنوات الاخيرة فوجدت فيها اكبر مثال للنزعة الحديثة في الادب القصصي فجذبت ورقة امامي وانتضيت القلم واخذت ارسم خطوطاً ورموزاً في غير قصد كي يكون لديّ مجال للتفكير فانني والحق اقول حرت في الاجابة ولكنني رأيت ان اترك الامر للعاطفة بدلاً من الفكر فاذا هي تملي عليّ اسماء لكتب اربعة ظهر بعضها منذ سنوات وظهر البعض في السنتين الاخيرتين وهذه الكتب بحسب ظهورها رواية توماس مان الالماني التي اسماها « الموت في البندقية » ورواية اندريه جيد الكاتب الفرنسي التي اسماها «المزيفين» ورواية «الامواج» لفرجينيا وولف الكاتبة الانجليزية ورواية « عالم جديد جريء » لألدس هكسلي

وما ان كتبت هذه الاسماء الاربعة حتى عجبت لنفسي لانني لم اضع بين هذه القصص قصصاً كنت ولا ازال اعجب بها واتخذها مثالاً للادب الحديث : فلماذا لم اختر كتاباً من كتب د. هـ. لورنس مثلاً ؟ ولماذا لم استشهد بفن جيمس جويس في رواية « عوليس » ؟ لست يستطيع ان اقول ان توماس مان كسر في قصة « الموت في البندقية » قيود القصة القديمة كما فعل مؤلف «عوليس» الذي حاول ان يصور حياة مدينة بأسرها في اقصر من يوم وليلة ويرسم كل ما يمر بخلد رجل في اثناء تفكيره ، عجبت لنفسي اذ وضعت قصة نشرت في سنة ١٩١٢ مثل قصة « الموت في البندقية » الى جانب قصة نشرت في سنة ١٩٢٥ مثل قصة « المزيفين » الى جانب قصتين ظهرتا في السنتين الاخيرتين وعجبت لنفسي اذ لم اميز بين قصة قصيرة مثل « الموت في البندقية » وبين قصص طويلة من النوع الذي اصطلحوا على تسميته بالرواية

كل ذلك اخذته على نفسي ورأيت انني ربما تسرعت في الحكم وآثرت مجرد الميل على الوصول الى الحقيقة. ولكنني كلما اطلت التفكير وجدت ان اختياري لم يكن عبثاً وانني اذا كنت قد اغفلت روايات فيها مثال حي للنزعة الحديثة فبعدت عن لورنس واديه واغفلت جيمس جويس وتعقيداته

واهملت مارسيل بروست ودقائقه النفسية فأني لم اكن في اختياري غير موفق ولم اكن عن الصواب بعيداً

ربما كنت اجد في لورنس ما يتخذ مثالاً للنزعة الحديثة : في « قوس المطر » وفي « عصا هارون » بل اكثر من ذلك في « النعمان ذي الريش » ، ففي لورنس نجد نزعات حديثة بادية في اكثر صفحاته — وان مباحثهُ ودورانه حول اللذة الجسدية وتمجيده لها وحرقه البخور دائماً امام آلهة الحب واللذة نزعة حديثة من نزعات هذا العصر وانهُ لمن المستطاع ان نقرأ ما شئنا من ادب عصر الملكة فيكتوريا دون ان نجد اثراً لتلك النزعة ، قد نجد تيارات قليلة دائمة في جميع عصور الادب ولكنها تيارات خفية وربما قيل ان النزعة الواقعية تصف نقائص الناس ومثالبهم وتصور الامور بحيث لا ترحم سراً ولا تكتم تفصيلاً ولكن النزعة الواقعية تفعل ذلك ابداً عن غرض هو تصوير الحياة الواقعية فحسب ، فليس في ادب القرن التاسع عشر — فيما عدا الطلائع التي تسبق العصر بزمن مديد — ما يشبه دعوة لورنس وليس لورنس وحده بل البعض من معاصريه ايضاً ، فتمجيد اللذة الجسدية واتخاذها قاعدة للحياة هي نزعة حديثة بلا ريب ولكن ما اخطأ فيهِ لورنس هو اعتباره ان اللذة الجسدية هي القاعدة الوحيدة للحياة انما نعيش من اجلها او يجب ان نعيش من اجلها ، وانما نموت من أجلها او يجب من أجلها ان نموت. وفي ذلك كان لورنس يعارض أدب العصر السابق له الذي تجرد من اللذة الجسدية او لم يذكرها الاَّ في معرض الذم ولكن لورنس ذهب الى أبعد من ذلك فقد اتخذها ديناً ونصب نفسهُ لهذا الدين كاهناً ومبشراً وتكلم عن هذا الدين بتعصب الدعاة الاول عن عقيدة ثابتة فيما يبشر بهِ ويدعو اليهِ وربما كان مبلغ هذا التعصب ومداه ناجماً عن علة نفسية كما يقول البعض ليست هي الاغراق في معرفة اللذة وانما هي الحرمان من معرفة اللذة وربما كان لعلة نفسية اخرى ولكن مهما يكن الامر فان دعوة لورنس لاقت نجاحاً وصار لدين اللذة مكان معترف بهِ في العالم الادبي الحديث ولكن لحسن الحظ لم يأخذ العالم بمقاييسه فقد قبل التعاليم على أن يضمها الى عقائده الاخرى ، فليست اللذة الجسدية إذن — وهي الطابع الغالب على مؤلفات لورنس — هي ما نريد ان نعتبره نزعة حديثة فقد يكون الاهتمام باللذة الجسدية احدى النزعات ولكننا نبحث عن روح الادب الحديث ونزعته في تياره الاكبر

وفي مارسيل بروست اين نجد النزعة الحديثة ؟ نحن نعلم ان بروست اختطَّ في قصصه خطة تكاد تكون فريدة وعرض لنا صوراً في طريقة غريبة ابتدعها فقد رسم لنا حياة مارسيل وبطل قصته وهو طفل يفكر تفكير البطولة المبشر وفي منزل سوان ذلك السيد البسيط الذي كان صديقاً لأمير من اكبر الامراء وصوَّر لنا حياة ذلك السيد يتقلب بين الشك والغيرة وصوَّر حب مارسيل لجلبرت وخيبته ثم رغبته في التخلص من شبح هذا الحب ثم تقلبه في شمس الدوقة جرمانت وما يحوطها من جوّ ارستقراطي يعرفهُ بروست حق المعرفة وما فيهِ من ديدان مزخرفة وحشرات مذهبة ووصف

لنا حياة شارليس العجيبة وميوله الزائفة يحمل سرًّا خائفاً مضطرباً مهدم الاعصاب

هذا الفن قائم على التحليل الدقيق الذهب الى درجة الاملال وان كان شديد الجاذبية فذلك الفحص المستمر وتقطيع للجسد وما داخل الجسد وفحص كل جزء بمنظار — ذلك الغرف على وتر واحد وتكرار نغمة واحدة ، وتلك الصور المتتابعة في اسلوب متصل معقد ان هو الا نزعة حديثة في الادب . ولكن هل هي روح العصر الحديث ؟

ثم جيمس جويس الذي يشبه بروست في طريقته بعض الشيء وان كان يختلف عنهُ في نواحٍ متعددة ماذا يظهر لنا من عناصر جديدة ؟ انهُ يروي لنا قصة يوم واحد او اقل من يوم من حياة رجل عادي من اهل دبلن هو المستر بلوم اليهودي الاصل الذي جاوز الاربعين من العمر وهو رجل مرهق بعمله اذ هو منظم اعلانات ويحكم هذا العمل يدخل هذا المتجر وذاك ويحكم هذا العمل يكون مع الناس رفيقاً وهم مداهناً ، ثم يصوّر لنا الكاتب امرأته الحسناء التي تخونه وتتخذ خليلاً بعد خليل وهو حزين لذلك مهموم ولكنهُ لا يجرؤ على اتخاذ خطوة حاسمة لانهُ لا يجد في نفسهِ من علائم الرجولة ما يساعدهُ على ذلك ونرى صورة ستيفن ديدالوس الذي عرفناه في صباه في رواية سابقة لجويس وصف فيها حياة هذا الصبي وهو يتعلم في المدارس ورأينا نموه الذهني والجسدي ، وهو في رواية «عوليس» فتىً يستعد لاتمام دراسته في فرنسا ونتتبع في هذه الرواية حركات بلوم في يومه ونراه ينتقل من مكان الى مكان ويقوم بأعمال عدة اكثرها بعيد عن عمله حتى ينصرف الى ستيفن اي حتى يعثر تلماك على عوليس كما في «الاوديسة»

***

اراد جويس ان يصوّر لنا حياة رجل في اقل من يوم وليلة داخل المدينة ولكنهُ اراد اكثر من ذلك ان يمكس لنا حياة مدينة عظيمة صاخبة بحسناتها ورذائلها . ثم اراد ابعد من ذلك ان ينقل الصور التي تمر في مخيلة العقل الانساني وهو في غمرات الحياة ، وهذا ما دعا جويس الى ان يخلق لنفسهِ اسلوباً جديداً مليئاً بالاستعارات والتشابيه والاشارات الى حوادث ماضية وهو اسلوب يصعب تتبعه ولكنهُ ابتدع ليؤدي الغرض المقصود منهُ وليس أدلّ على صحة هذا القول من المقابلة بين اسلوبهِ في مجموعة القصص المسماة « أهل دبلن » وبين أسلوبه في « عوليس » ثم بين اسلوبه في «حياة الفنان في صباه» واسلوبه كذلك في «عوليس»

ولا ريب في ان تعقد الاسلوب ظاهرة من ظواهر الادب الحديث وهي نتيجة للتعمق في التحليل النفسي ونجد هذه الظاهرة واضحة في كل من بروست وجويس وقد بليت على فكرة جديدة في فن القصة . فالكتّاب المحللون يزعمون ان القصة كما يراها في الكتّاب الذين يسيرون على المبدأ القديم ان هي الا نتيجة الانتخاب والاختيار فالروائي يختار ما يريد ان يقوله عن شخصيات روايته ويكتم ما يريد ان يقول ويصف جوانب منهم ويسكت عن جوانب ويتكلم عن مواقف ويهمل

مواقف فيوفق احياناً ويخطىء احياناً وهو في الحالين عابث بجزء كبير بل بالجزء الاكبر من الحقيقة يخفيه ، فصور الكاتب في روايته ان هي الا صور مبتورة واذا بدت للقارىء صوراً كاملة ، واذا بدت لهُ في ثوب الحقيقة فانما ذلك نتيجة عمل ذهني كان من الاولى ان لا يحدث

وهذه النظرية هي بلا ريب خطوة نحو الطريق الصحيح وبها اخذ الكتّاب في الادب الحديث بوجهٍ عام غير ان البعض تطرّف فيها والبعض لم يتطرّف ونجد عناصر هذا المذهب في لورنس ونجد استعمالاً مستمرًّا له في جويس وفرجينيا وولف وبروست على اختلاف في كل منهم ونجد تطرفاً في استعماله في رواية كرواية « الحج » لمسز ريتشاردسن التي سجلت فيها حياة بطلة روايتها « مريم هندرسن » فأخرجت عشرة اجزاء من هذه الرواية ولما تبلغ بطلة الرواية سن الاربعين . وقد يكون لنا ان نتساءل هل وفقت مسز ريتشاردسن حقيقةً في تسجيل هذه الحياة تسجيلاً دقيقاً وهل يمكن لكاتب مهما أغرق في هذه الطريقة ان يصل الى ان يثبت كل شيء ؟ عقيدتي ان ذلك ليس مستطاعاً

فالاختيار اذن قائم دائماً ومسز ريتشاردسن نفسها لا تستطيع الا ان تكون كغيرها من الروائيين

يتبين لنا الآن في وضوح مدى العلاقة بين هذه الطريقة وبين ما يفعلهُ اطباء النفس على طريقة فرويد فالمسلك في الحالين واحد والغرض متشابه : الاطباء يتطلعون الى الوقوف على خفايا نفس العليل فيطرحون عليه في جلساتهم اسئلة عدة يحاولون بها ان يستطلعوا سره الكمين فيقتربون من موضوع هذا السر احياناً ثم يبتعدون بقدر ما يجدون فيه من استعداد الى ان يوفقوا في معرفة سرّ الداء وسبب العلة والكتّاب الحديثون يسجلون الدقائق والتفصيلات بامهاب للوقوف على علة الحوادث

***

كل هذه النزعات المختلفة تؤثر بلا ريب في سير الادب الحديث ولكنني لم ارد ان ارى فيها ما يدل على الروح الحقيقية للادب فان هذه الروح في خلاصتها هي شيء ابعد من ذلك ، لقد اردت نزعة خفية تتمثل فيها نفسية العصر وهذه النزعة وجدتها في القصص الاربع التي اشرت اليها

فقصة توماس مان عن « الموت في البندقية » هي بلا ريب من خير القصص التي ألفت في هذا القرن حتى لتكاد تبلغ حدَّ الكمال وقلما نجد لها مثيلاً في روعة الاسلوب على بساطته وموضوعها رحلة رجل مكدود جاوز الستين مدير لمصرف المالي اضنى العمل جسمه وحطّم اعصابه نال الثروة والجاه ولكنهُ في سبيل ذلك كاد يفقد الحياة فهو يرحل الى البندقية لعلَّ شمس ايطاليا وسماءها يعيدان اليهِ شيئاً من الصحة التي يلتمسها وقد وجد الراحة الجسدية ولكنه وجد تعباً نفسيًّا فان طائفة غريبة غير معقولة تولدت فيهِ هي اهتمامه بغلام في نحو الحادية عشرة من عمره اهتماماً لا يدري هو سببه وازدياد هذا الاهتمام الى ان صار شاغلاً لتفكيره فلا يطيب له شيء غير مراقبة

الغلام مراقبة دائماً ، وانتشرت الكوليرا في اثناء ذلك بمدينة البندقية فأسرع الاجانب الى الرحيل عنها ويزمع اهل الغلام الرحيل فيذهب الرجل المحطم ليرقب الغلام في سفره ويودعه باخر نظرة فيجلس على مقعد وعينه لا تتحول عن غلامه الذي لم يتصل به قط ولو بكلمة واحدة ويتحرك القطار فاذا الرجل يرتمي على المقعد ميتاً

***

لم يخرج توماس مان في وضع هذه القصة عما هو مألوف ولكن فيها الروح الحديثة التي نشير اليها لا نعني ذلك الحب غير الطبيعي الذي شعر به رجل جاوز الستين لغلام في الحادية عشرة من عمره ، حب لا يمكن ان ينشأ عنه شيء وليس له غاية وانما الذي نعنيه هو تصوير ذلك القلق والاضطراب النفسي الملازم للحياة الحديثة فهذا الرجل كان يريد الراحة في سن يستحق فيها هذه الراحة ويريد ان يخلد الى السكون في وقت يجب فيه السكون ولكنه بدلاً من ذلك لا يجد غير التعب الذي خلقه لنفسه كأن الحياة في ضجتها وصخبها ومرعتها تأبى ان تعرف الراحة فاذا كان العالم قد فقد البساطة وتعقدت وسائله المادية فان النفس تأبى الاّ ان تصير معقدة شأن الحياة المادية فالانسان لا يستطيع ان يحول دون خلق المتاعب والمشاكل لنفسه والادباء الحديثون لا يستطيعون الاّ ان يصوروا هذه الحيرة وهذا الاضطراب النفسي

أما رواية « المزيفين » لاندريه جيد فهي جديدة في كل شيء سواء في ذلك موضوعها او اسلوبها الفني وهي ليست كالروايات العادية اذ لا نجد لها موضوعاً او نظاماً متتابعاً او فكرة ظاهرة محددة ويعالج المؤلف كثيراً من الموضوعات في الحوار الذي يدور بين اشخاص واهم شخص في الرواية هو ادوار الروائي الذي يؤلف رواية باسم « المزيفين » ومن ذلك نرى ان المؤلف انما اراد ان يصور نفسه في صورة بطل روايته وراء يروي لنا حوادث هذا البطل احياناً وأحياناً ينقل مذكراته ، واشخاص الرواية مجردون تجريداً تاماً من الواقع الخلقي ولكنهم يمثلون فكرة اكثر مما يمثلون احياء ومع ذلك نرى هذه الرواية تمثل الحياة العصرية حق التمثيل بصخبها وضجتها ، باضطرابها وحيرتها

واذا رجعنا الى رواية «عالم جديد جريء» نجد لوناً آخر من الوان الفن الحديث هو الفكاهة الممزوجة بالسخرية فقد اراد منا الدس هكسلي ان نرى العالم كما يبدو في المستقبل اذا تطورت الامور تطوراً منطقياً وفاقاً لبعض الآراء التي يقول بها بعض العلماء اليوم ولا ريب في أن هذه الرواية العجيبة بعالمها العجيب ان هي الاّ نقد لاذع في قالب روائي للنزعة المادية التي ينزع اليها العلماء ويتطرف فيها بعضهم وميل بعض هؤلاء العلماء الى الاغراق في الاستنتاج ونسيانهم الواجب الاول في البحث العلمي وهو ان يحتاطوا اشد الاحتياط في ابداء آرائهم وان لا يسلموا

برأي الا بعد ان تثبت لم صحته بالتجربة العلمية الصحيحة . لقد تمكن العلم من هدم اركان الاوهام وازال دولة الآراء والمعتقدات التي لا تقوم على اساس ونال العلم نصراً كبيراً ولكن كيف كان ذلك ؟ لم يكن العلم لينجح نجاحاً يذكر لو لم يقم على طرق البحث التنزيه المجرد من اية غاية الا الوصول الى الحقيقة او الاقتراب منها فاذا حاد العلم عن هذه الخطوة وأخذ يندفع في طرق الحدس والتخمين فانه لا بدَّ فاقد مكانته بين الناس

ففي هذه الرواية كما في سائر روايات الدس هكسلي نزعة داعية الى السخرية القاسية المرة ومما يؤخذ عليه دائماً جفاؤه نحو شخصيات رواياته على ان موضوع هذه الرواية بطبيعته مما يلائم الدس هكسلي ويظهر بجلاء جوانب عبقريته

ان الدس هكسلي اتى في هذه الرواية بشخصية فذة هي شخصية الشاب المتوحش الذي نشأ بين القبائل الهمجية يتكلم لغة انجليزية غير لغة الناس الذين نشأوا في « العالم الجديد الجريء » فولدوا في المصانع ودبت فيهم نسمة الحياة نتيجة لتفاعل كيميائي فهو يتكلم لغة تعلمها من كتاب مجهول عثر عليه لشاعر اندر ذكره وعفا اثره لان المدنية التي يصفها هكسلي تأبى الاتصال بالقديم وهذا الشاعر هو وليم شكسبير

في هذه الشخصية نرى اثر الروح الحديثة التي رأيناها في المؤلفات السابقة ، نرى التردد والحيرة القريبة من اليأس على ان الكاتب ابتدع لها سبباً معقولاً وعلة مقبولة وكيف لا يكون الشاب المتوحش في حيرة من امره وهو يرى كل ما يحوطه عجيباً بحيث يصعب عليه فهم الامور كيف تجري وفهم الناس كيف تفكر : ان عالمنا لم يبلغ بعد مبلغ هذه الحياة العجيبة التي وصفها هكسلي في روايته والتي ينتظر ان يصل اليها لو صحت احلام بعض العلماء ولكن عالمنا الآن بما هو فيه جدير بأن يكون موضع الحيرة

***

وفي رواية « الامواج » لفرجينا وولف ماذا نرى ؟ هل نرى شيئاً غير هذه الحيرة في فهم الحياة ؟ وغير هذا القلق الذي استولى على النفوس ؟ تصف الرواية حياة اشخاص وتتبعهم وهم اطفال وهم صبية وهم فتيان ثم وهم رجال ثم شيوخ تتلقفهم الحياة وتطوح بهم الى هذا الشاطىء أو ذاك كما تفعل الامواج وهم قد يناضلون حيناً ويمانعون ولكن بحر الحياة المتزجرج أقوى منهم وأعز سلطاناً

إن هذا الكتاب ان هو الا نشيد موسيقي يعزف على آلات عديدة متنوعة الاصوات صاخبة احياناً وهادئة احياناً وقد يكون في آخر نغماته روح الاستسلام ولكنه استسلام الحائر الذي اراد ان يعرف الحقيقة فعجز عن استجلاء السر